

السلطان ألب أرسلان

الطريق الذي انفتح من ملاذكرد



Joylino

السلطان ألب أرسلان

الطريق الذي انفتح من ملاذكرد

أمسك ألب أرسلان الصغير القوس بكلا يديه. نظر إلى الهدف أمامه، وحبس أنفاسه ثم أطلق السهم. مرّ السهم بجانب الهدف وانغرس في التراب. قطب حاجبيه ومدّ يده إلى سهم جديد، فوضع أبوه جغري بك يده على كتفه وقال: «لا تتعجل. فكّر أولاً في موضع الخطأ».

هذه المرة ثبتّ ألب أرسلان قدميه جيداً. رفع قوسه وانتظر قليلاً. وحين أصاب السهم الثاني الهدف، ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة. كان لا يزال طفلاً صغيراً، لا يعرف شيئاً عن المعارك التي سينتصر فيها، ولا عن البلاد التي سيحكمها. كانت فرحته يومها فرحة من نجاح في عملٍ بعد أن تدرب عليه بانتباه.



مرّت السنوات، وحلّ قوس أكبر محلّ القوس الصغير الذي كان ألب أرسلان يمسكه في طفولته. صار يقطع طرقاً طويلة على ظهر حصانه، ويتولّى مهام إلى جانب أبيه. وحين مرض جغري بك، أسند إليه بعض مسؤولياته. وأصبحت تنتظر ألب أرسلان مسائل أصعب بكثير من إصابة هدف بالسهم.

فلكي يتحرّك الجيش، كان لا بد من إراحة الخيول، وإعداد طعام الجنود، ومعرفة الطرق التي سيسلكونها. استمع ألب أرسلان الشاب إلى القادة ذوي الخبرة، واتخذ القرارات وواجه الصعوبات. ومع الوقت بدأ الناس يثقون به. وكان اسم «ألب أرسلان» يعني الأسد الشجاع. وبشجاعته، نشأ قائداً قوياً يليق به هذا الاسم.



بعد صراعات صعبة، أصبح ألب أرسلان سلطان الدولة السلجوقية الكبرى. وكان إلى جانبه وزيره العالم نظام الملك، يساعده في شؤون الدولة. وكل يوم كانت تعرض عليهما مسألة جديدة: حاجة مدينة، أو أمن طريق، أو خبر قادم من بعيد...

وتروي الأخبار أنهما التقيا يوماً في نيسابور أناساً يريدون التعلم، لكن إمكاناتهم كانت قليلة. اقترح نظام الملك بناء مكان يدرسون فيه ويقيمون. وأيد ألب أرسلان هذه الفكرة. ومع مرور الوقت، افتتحت مدارس عرفت باسم المدارس النظامية. وبينما كان السلطان يقوي جيشه، كان يساعد أيضاً على فتح مزيد من الأبواب أمام الطلاب ليتعلموا ويقرأوا الكتب.



في عام ١٠٧١، كان ألب أرسلان في حملة في الجنوب حين وصله خبر مهم. كان الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينيس يتقدم شرقاً بجيش كبير. وكان الصراع المستمر منذ زمن بين السلاجقة والبيزنطيين قد يتحول الآن إلى مواجهة أكبر بكثير.

غير الخبر طريق الجيش. فطُويت الخيام، ورُبطت الأحمال، وجُهزت الخيول. واتجه ألب أرسلان شمالاً. كانت أمامه طرق عليه أن يقطعها، وقرارات عليه أن يتخذها بسرعة. والرسل يذهبون ويحيئون، والقادة يستكملون الاستعدادات. كان السلطان يتقدم على رأس جيشه، وهو يشعر بثقل المواجهة القريبة. وفي نهاية الطريق مكان لن ينسى اسمه على مدى قرون: ملاذكرد.



قرب ملاذكرد، اقترب الجيشان أحدهما من الآخر. كان الغبار يرتفع في السهل، والحراس ينتظرون على التلال. تفحص ألب أرسلان المكان مع قاداته. وتحدثوا عن مواضع انتظارهم وكيفية تحركهم. ففي يوم كهذا، قد تؤدي أصغر غفلة إلى نتائج خطيرة.

أرسل السلطان وفداً إلى الإمبراطور، فعملت المفاوضات تفتح طريقاً إلى اتفاق. لكن الوفد عاد دون النتيجة المرجوة. ولم يبقَ إلا استكمال الاستعداد للمعركة. ومع حلول المساء، عاد الجنود إلى خيولهم. لم يكن أحد يعرف ما سيحدث في اليوم التالي. وكان على ألب أرسلان أن يحافظ على تماسك جيشه وسط هذا الغموض.



كان يوم الجمعة، السادس والعشرين من أغسطس عام ١٠٧١. ومع زوال برودة الصباح، استمرت الاستعدادات في المعسكر. فُحصت السروج، وأخذ الجنود أماكنهم. اجتمع ألب أرسلان بقادته للمرة الأخيرة، ثم صلى ودعا الله مع جنوده.

وتذكر الروايات التاريخية القديمة أنه خرج أمام جنوده في ذلك اليوم بثوب أبيض. كان السلطان سيقف إلى جانبهم في القتال. وحين رآوه أمامهم، أصغوا إليه باهتمام. كانوا في السهل نفسه، يواجهون الخطر نفسه. وبعد قليل أمسكت لجم الخيل، وأخذ ألب أرسلان مكانه في مقدمة جيشه. لقد انتهى الانتظار.



انتشرت أصوات حوافر الخيل في السهل. كان فرسان السلاجقة يتحركون بسرعة، وجنود البيزنطيين يتقدمون. ولم يكن من السهل رؤية كل شيء وسط الغبار. كان لا بد من متابعة إشارات القادة، وعدم الابتعاد عن الرفاق.

وبعد حين، بدأت وحدات السلاجقة تتراجع. لكن هذا التراجع كان جزءًا من خطة ألب أرسلان. وكلما تبعها القوات البيزنطية، صار الحفاظ على نظامها أصعب. ثم غير فرسان السلاجقة اتجاههم من جديد، وتحركت وحدات أخرى من الجانبين. وانتقلت الحركة من أحد أطراف السهل إلى الطرف الآخر. كان ألب أرسلان يغير مجرى المعركة مستفيدًا من سرعة فرسانه ومن اختيار الوقت المناسب.



مع تقدّم النهار، اختلّ نظام الجيش البيزنطي. تباعدت وحداته، ولم تعد الأوامر تصل إلى الجميع. وتفوّق جيش ألب أرسلان. وقبل المساء، اتضحت نتيجة المعركة: لقد حقّق السلاجقة نصراً كبيراً.

وكان الإمبراطور رومانوس ديوجينيس قد وقع في الأسر أيضاً. ومع انتشار الخبر بين الجنود، ارتفعت أصوات الفرح. لكن اليوم لم يكن سهلاً؛ فقد سقط قتلى وجرحى من الجانبين. وبينما أخذ غبار السهل ينقشع ببطء، كان أمام ألب أرسلان قرار جديد. فالإمبراطور الذي قاتله أصبح الآن أسيراً لديه. كيف سيعامله؟



هذه المرة، التقى الحاكم للتفاوض، لا للقتال في ساحة المعركة.
فالإمبراطور الذي كان يقود جيشه صباحاً أصبح أسيراً. أما ألب
أرسلان فكان يملك قوة من حقق نصراً كبيراً.

استقبل السلطان رومانوس ديوجينيس وأكرمه بما يليق بحاكم. وخلال
مفاوضات استمرت أياماً، ناقشا شروط السلام. وفي النهاية توصلا إلى
اتفاق. أطلق ألب أرسلان سراح الإمبراطور، وأعطاه فرقة ترافقه في
طريقه. وهكذا أضاف إلى قيادته في ملاذكرد حسن التصرف بعد
النصر. وبعد سنوات، سيحكي من يكتبون عنه قصة هذا اللقاء أيضاً.



انطلق الرسل من ملاذكرد يحملون خبر النصر إلى المدن البعيدة. وأصبح ألب أرسلان يُذكر بين أعظم قادة عصره. لكن مستقبل الأناضول لم يكن ليتغير في يوم واحد. ففي السنوات التي تلت النصر، تسارع استقرار الأتراك في هذه الأراضي، وظهرت مستوطنات ودول جديدة.

لم يعيش ألب أرسلان طويلاً بما يكفي ليرى كيف ستتطور كل هذه الأمور. ففي العام التالي، تعرض لهجوم أثناء حملة في الشرق، وأصيب إصابة خطيرة، وتوفي عام ١٠٧٢. وتولى ابنه ملكشاه الحكم من بعده. انتهت حياة السلطان، لكن أثر النصر الذي حققه في ملاذكرد استمر بعد رحيله.



بعد سنوات، سلك مسافرون آخرون طرق الأناضول. كانت معهم أسرهم وأمتعتهم وقطعانهم. فمنهم من أقام في سهل، ومنهم من بدأ حياة جديدة قرب مدينة. نسجت الأقمشة على الأنوال، وزرعت البذور في الحقول، وكبر الأطفال في البيوت. وانضمت حكايات جديدة إلى حكاية الأناضول الطويلة.

لهذا تُسمى ملاذكرد «المكان الذي انفتحت فيه أبواب الأناضول». ولم يكن ذلك الباب باباً هائلاً مصنوعاً من الحديد. بل كان رحلة بدأت بعد نصر، واستمرت أجيالاً. وكان من أبرز الأسماء في بداية تلك الرحلة ألب أرسلان، الذي تعلّم في طفولته أن يمسك قوسه بصبر.

في ملاذكرد، تحقق النصر في يوم واحد. وامتدّ أثر ذلك اليوم قرونًا.

